

من وراء البحار

فرنسا بعد أن وجدت العالم ووجدها

أثارت فرنسا كما تثير دائماً، الكثير من الأقوال، لا سيما بعد تحريرها ثم بعد انتهاء الحرب الأوربية. وقد نشرت المجلات الأدبية والاجتماعية بحوثاً كثيرة في وصف ما تحملته هذه الدولة الكبرى من آلام، وفي حالتها الآن وما ينتظر لها من مستقبل. وقد رأينا أن نقبس ثلاث صور مختلفة، تلخص أقوال ثلاثة من الكتاب نشرت في مجلات فرنسية وإنجليزية وأمريكية. أولها مقال قيم للأديب الفرنسي بول سارتر نشر في مجلة «فرانس-أوريان» وهو عن عهد الاحتلال. والثاني خلاصة مقال للسيدة كونارد نشر في مجلة «هورايون» الإنجليزية وهي تصف فرنسا بعد التحرير. والثالث بحث بقلم المؤرخ الاجتماعي اندريه سيجفريد نشر في مجلة «الأمور الخارجية» الأمريكية، وكان جديراً بالقلب بأكمله.

فرنسا تحت الاحتلال

يقول الأديب سارتر: إن الإنجليز والأمريكان عندما وصلوا إلى باريس دهشوا إذ وجدوا أهلها أقل نحولاً مما كانوا يظنون، ورأوا ثياباً جميلة تبدو عليها الجدة، ولم يقابلوا إلا نادراً تلك الصفرة التي تدل على الحرمان. وكثيراً ما ينقلب الحنان المخدوع إلى حقد، ويخشى أن يكونوا قد غضبوا لأن حالة الفرنسيين لم تنطبق على الصورة التي كانوا قد تصوروها. ولعل بعضهم ظن أن الهزيمة كانت نعمة وأن فرنسا يجب أن تعتبر الهزيمة فرصة أنقذتها من شرور، كما ذكرته غير جريدة إنجليزية.

أجل إن الانجليز ذاقوا من ألوان الحرب أكثر من الفرنسيين ؛ فهم عرفوا القنابل الطائرة والخسائر الجسيمة في أرواح المدنيين ، وشاطروا الفرنسيين في ألوان من الحرمان تجربها الحرب ، مثل الحرمان الخفى ، ونزول مستوى المعيشة للطبقات ، وانتشار مرض السل . ولكن هنالك أنواعا من المحن لا تعرفها غير البلاد المحتلة .

يجب أن نفهم قبل كل شيء أن الألمان لم يكونوا يسيرون في الشوارع والسلاح في قبضتهم ، ولم يكونوا يطلبون إلى المدنيين أن يتركوا لهم أماكنهم وأن يفسحوا لهم الطريق ، بل لقد كانوا يقدمون مقاعدهم في « المترو » للنساء . ومع ذلك كان هنالك عدو من أبغض الأعداء إلى الفرنسيين ، ولكن هذا العدو ليس له وجه ، أو على الأقل إن أولئك الذين رأوا وجهه قلما تمكنوا من العودة ليصفوه . وهذا العدو يختطف في الظلمة خير الرجال ويختص بهم . فأنك تذهب لزيارة صديق أو تحاول الاتصال به بالتليفون فلا تجده ، وكل ما تعرفه فيما بعد أنه وجدت آثار ألمانيين زاره بالليل وتحدثوا إليه ثم حملوه إلى حيث لا تدري .

الواقع أن الفرنسيين كانوا يشعرون في حياتهم اليومية أن الصلة انقطعت بينهم وبين الماضي ، وأن نظام حياتهم قد تغير . والواقع أن باريس كانت مدينة ميتة لا سيارات ولا مارة ، وأن الناس فيها - إلا في أوقات معلومة وفي أحياء معلومة - يمشون بين الأحجار . وقد زحفت إلى المدينة في أطرافها روح الريف ، وبدأت شوارعها فسيحة والمسافات فيها بعيدة إذ خلت من أهلها .

لقد ظل الفرنسيون مدة أربع سنوات في ميزان الأقدار . يظهر الانجليز في الراديو - الصحف الصداقة لهم ، ولكن كان من العبث أن يعتقدوا بأن الانجليز كانوا عندئذ يقاتلون من أجلهم ، بل هم عامل من الأغراض العديدة التي يقاتلون من أجلها . أما الألمان فكانوا على أحسن الفروض يعملون على ضم تلك البلاد للكتلة الأوروبية . لقد صار الفرنسيون مثل آنية الزهور التي توضع على نافذة بالنهار وتنقل إلى داخل الغرفة بالليل دون أن تسأل عن رأيها .

هكذا صار الفرنسيون بلا مستقبل ، يعيشون ليومهم والعمال يعملون ليومهم ؛ فقد يقف التيار غداً ، وغداً تقطع ألمانيا المواد الأولية أو تقرر نقلهم إلى بافاريا أو إلى جهة أخرى من الجهات النائية .

فرنسا بعد التحرير

ووصفت السيدة نانسى كونارد، فى الرسالة التى بعثت بها من باريس إلى مجلة «هورايزن»، شعورها عندما وطئت أرض هذه العاصمة بعد غيبة خمس سنوات، وهى التى كانت تتخذ فرنسا مقاماً وقد قضت عشرين عاماً من حياتها فى باريس تعمل فى الصحافة وهى تقول: «كنت أسير وحدى (ولم أقطع عن السير منذ ذلك الوقت) فى ميادين الشانزليزيه ومنها إلى تلك الشوارع الواسعة المعروفة بالجران بوليفار حتى أصل إلى بناء البورصة... وكنت فى أثناء هذا السير الذى أقوم به لأتصل بفرنسا أقيد بنظري كل ما يمكن تسجيله. وقد أدهشتنى ثلاثة أمور فى الحال: تلك القبعات التى تضعها النساء فوق رؤوسهن، وتلك الأحذية العجيبة الأشكال ذات الكعوب الخشبية، وأولئك الرجال العجيبون الذين يعملون بدل سيارات التاكسى وهم يسوقون مركبات على دراجات أو دراجات ذات محرك وهذه المركبات من الخشب أو المعادن أو الحصى أو كل ما يتسع لشخصين ويكون خفيفاً فى ثقله. ولقد قال الألمان للفرنسيات معلقين على هذه القبعات: «ماذا تفعلن لو أنكن انتصرتن فى الحرب؟». ومن السهل أن تقدر كيف أن هذه القبعات الكبيرة التى هى أحياناً عمامم جميلة ظهرت فى عالم الزى أن الغرض منها رفع الرأس فى وجه الألمانى علامة على أن الروح لم تنكسر — أما عن المركبات وسائقها فيقول الناس: «إن هذا لفظيع، ولكن السائقين رجال أقوياء وهم يكسبون نقوداً كثيرة».

أما الشوارع الكبيرة «جران بوليفار» فهى مليئة بالناس، والحوانيت تبرز بمحتوياتها، والصحف (على أنها للأسف فى صفحة واحدة) تباع فيها وتظل التهوات مفتوحة إلى الساعة الثامنة أو التاسعة ويغلق البعض منها يوماً أو يومين فى الأسبوع. وتباع مياه ملحة الطعم ذهبية على أنها جعة. ويوجد كونيالك مقبول ويوجد مشروب القهوة الوطنية. وهذا يكلف ست أو عشر مرات أو عشرين مرة بالنسبة للنوع الأصلى منها.

وتحدثت السيدة عن الكتب التى يقبل عليها الفرنسيون فذكرت كتاباً لبول فاليرى عن برجسون الفيلسوف وقصة اسمها «اوريليان» وذكرت

إقبال الناس على مؤلفات سارتر وكاميس ، وتنبأت بما ينتظر محبي الآداب والفنون في القريب العاجل عند عودة الحياة إلى طبيعتها في العاصمة الفرنسية .

وتكلمت عن المجتمعات الفرنسية في الضفة اليسرى من السين وذكرت قهوتي « دى ماجو ، وفلورى » وقالت إن الأخيرة كانت معقلا أدبيا أمام الألمان حتى إنهم كانوا يترددون في الدخول إليها وهي الآن مركز للانتاج الأدبي ، ويجلس سارتر فيها وهو يكتب طويلا عند ما يكون في باريس ، وهي تضم مدرسة في الأدب مؤلفة من جماعات المقاومة ، وكأنها واحدة في وسط الصعوبات العديدة للحياة اليومية ، وهي الطعام والنقل وعدم وجود الوقت لتدبير أمور المعيشة .

على أن باريس بالرغم من ذلك هي باريس ، لم تمسها القنابل إلا في بعض الضواحي حيث التخريب شديد . أما وسط المدينة فهو أنيق مليء بالنشاط منظم الحياة حتى بالروايات المسرحية القديمة والحديثة ودور السينما ومعارض الصور والأزياء . وقد أخذ أربعون من كبار صانعي الملابس يبيعون ملابسهم بخمسة عشر ألف فرنك على الأقل ، وتبيع هذه المحلات ذاتها أزياء القبعات الجديدة بما لا يقل عن ثلاثة آلاف فرنك ، ومع ذلك يجدون إقبالا ليس بالقليل .

وتكلمت كاتبة هذه الرسالة عن الروايات المسرحية الحديثة وعن رجال الأدب الملتفين حول مجلة « لتر فرانسيز » وذكرت أن السوق السوداء آخذة في الازدهار ، وأشارت إلى اكتشاف صورة جديدة للعصور هنرى روسو اسمها « الحرب » .

بعث الروح الفرنسية

على أن المقال الذى كان جديراً بالنقل بأكمله هو مقال أندريه سيخفريد الكاتب المؤرخ الشهير والأستاذ فى كولييج دى فرانس ونشرته له مجلة « الأمور الخارجية الأمريكية » وببحث فيه عن بعث الروح الفرنسية . وهو ، كما ذكر فى مستهل مقاله ، لا يرغب فى كتابة تاريخ ، وإنما يحاول تحليل الشعب الفرنسى كما هو بعد خمس سنوات وهى سنوات مثقلة بالحوادث أكثر من قرون ؛ إذ ليس فى تاريخ أثنى سنة مثل ما مرت به منشآت هذه البلاد من اجتماعية وسياسية وأخلاقية فى هذه السنوات القليلة . ولقد كان الدمار والاضطراب

كبيراً ، حتى إن فرنسا بعد أن عادت إلى مكاتها واستقلالها وشغلت مركزها بين الأمم لا يمكن اعتبارها وحدة سياسية .
ولكى نعرف مدى هذه الأزمة يجب أن نعود إلى حالة الفرنسيين عندما أعلنت الحرب . لقد كان المجهود الذى بذلته فرنسا فى حرب سنة ١٩١٤-١٩١٨ فوق طاقتها وخسرت فى سبيله مليوناً وخمسمائة ألف من أبنائها الموتي هى فى حاجة إليهم . ولم تكن تشعر بالرغم من انتصارها بأنها منتصرة ؛ فهى لاتنسى سهولة اقتحام حدودها التى اجتازها العدو أربع مرات فى قرن واحد ؛ لذلك كان إلحاحها فى احتلال الجانب الأيسر من الراين والتجأؤها إلى الاستناد بالتحالف مع شعوب سلاوية فى الشرق وهى شعوب لا تعوضها عن الحلف مع روسيا التى خسرتها عندئذ ؛ وكان البريطانيون والأمريكيون يلومونها على هذه السياسة فى حين كانت هى تعتقد فى سوء سياستهم ، على أنه ما تجسم الخطر الألماني حتى كان قد وقع المحذور ، فأبعدت فرنسا عن ضفة الراين ، وصار تدخلها فى وسط أوروبا مستحيلاً .

ولقد شعر الفرنسيون بشيء من المرارة حين قلبت الدولتان الانجلو سكسونيتان من سياستهما وأتحتا على فرنسا بأن تتبع سياسة تؤدى إلى الحرب ولقد صار الفرنسيون وحيدى فى الميدان ، والانجليز على استعداد لتأييدهم بكلمة . ولكنهم من غير جيش ، والولايات المتحدة تأبى أن ترتبط ، ورأت فرنسا عمق الهاوية فى « مونيهخ » فراجعت وبعد سنة أقدمت ولكن إقدام اليأس . فالذين قاتلوا فى حرب ١٩١٤ ظنوها نهاية الحروب ولكن الضرورة تدفعهم لحرب أخرى خاضت فرنسا غمارها فى غير حماسة فهى تبدو لها حرباً نخسر فيها كل شيء ولا تكسب شيئاً .

ومما زاد الحالة سوءاً ما كان من اضطراب داخلى فى السنوات العشر الأخيرة فاضطرابات ٦ فبراير سنة ١٩٣٤ وحكومة الجبهة الشعبية سنة ١٩٣٦ بذرت بذور الاختلافات العميقة . ولقد كانت الجمهورية الثالثة موضع تأييد الغالبية من الفرنسيين ، ولكنها لم تستطع منذ إنشائها فى سنة ١٨٧٥ أن تضم جميع الفرنسيين ولقد أخذت تفقد عطف جزء كبير من الطبقات الوسطى ، فى اليمين قوم يعترفون بشفاههم بالولاء للجمهورية ولكنهم يحتقرونها ويتمنون سقوطها ، وفى اليسار رجال الثورة . وكان من المستطاع السيطرة على هذين

الفريقين قبل ١٩١٤ ولكنهما فيما بعد صارا خطرين بعد أن أمكن فريق الثورة أن يتخذ روسيا الشيوعية مثالا ، وفريق الرجعيين أن يتخذ إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا النازية مثالا . فالمنشآت البرلمانية لا تسير سيرها الطبيعي إذا أعوزها الولاء وصارت الحكومة تلتجئ إلى الرجعيين إذا ما أرادت حفظ النظام وإلى الثوريين إذا ما أرادت الدفاع عن الجمهورية وصار الاختيار بين الثورة والرجعية حاجة ملحة ، حتى إن أمن الدولة لم يعد أحيانا في المكان الأول وصار لدى العقول المشوهة أنه من الضرورة الأولى هزيمة الثورة بدلا من هزيمة الألمان . وصارت ألمانيا لدى بعض الناس حاجزا يحتمون به من الفوضى . ونشأ عن هذا الخلاف في العاطفة الوطنية أزمة أثرت في معنى فكرة الوطنية نفسها ، وهذه الأمور قريبة جداً حتى ليشك في اعتبارها من الماضي . هذه الأمور تفسر السبب في قبول الهدنة سنة ١٩٤٠ ، فلقد كان الشعب الفرنسي يتمنى ألا تقوم هذه الحرب ، ودخلها في غير عقيدة ثم قال له الزعماء الحربيون إن الاستمرار في القتال مستحيل . أما الجنرال ديغول ففرق بين موقعة فرنسا وهي موقعة خاسرة وبين موقعة العالم التي يمكن أن تكتسب ، ولكنه في ذلك الوقت كان لا يمثل إلا عواطف أقلية إذ الظاهر أنه لم يبق ما يعمل إلا تدمير موقف كان من بادئ الأمر سيئاً ، ولا تلبث انجلترا أن تذوق مصير فرنسا وهكذا ذهبت الزعامة القديمة في هول الكارثة وسادت فوضى لا تظهر أمامها غير نقطة تجمع واحدة هي المارشال بيتان . ولم يكن الناس يعرفون عنه إلا أسطوره ، ولم يكونوا يعرفون أنه بطبيعته من دعاة الهزيمة وأنه بمضى الزمن قد نمت فيه شهوة السلطة لا ليقدم الجمهورية بل ليدمرها .

وأراد بعض الناس أن يعتقدوا أن آراء المارشال لا يمكن أن تكون موضعاً للريبة ، وكان الآخرون لا يؤمنون من دى جول إلا باسمه . والحقيقة أن البلاد كانت كرجل تلقى على رأسه ضربة عنيفة .

لقد كانت القوى التي تستمد منها حكومة فيشى آراءها معقدة ولكن تظهر فيها بعض الصفات البارزة ؛ فهي حكومة مطلقة يستعمل فيها المارشال سلطة « الزعيم الأساسى » . وهى لا تعترف بالاستفتاء العام وهو إجراء متبع منذ قرن في فرنسا ولقد عملت على نسيان الجمهورية بين شعب متمسك بها واتبعت نظاماً دينيا في المدارس الابتدائية لم تكن ترغب فيه حتى بعض الأحزاب الكاثوليكية .

وحاولت في الميدان الاجتماعي القضاء على نقابات العمال على أن تحل بدلها فكرة الدولة النقابية ، وفي السياسة الخارجية تجنب عقد محالفة حربية مع ألمانيا ولكنها أعربت عن كراهية للانجليز في قوة لا يمكن أن تكون غير حقيقية ، ولكن من الجور أن نقول إنها لم تعمل لتخفيف آلام الشعب الفرنسي . ولكن فرنسا الديموقراطية في زمن الثورة وفرنسا القوية الفخور في سنتي ١٧٩٢ و ١٩١٤ لا يمكن أن تعرف نفسها في هذا النظام . ولم تقتصر الحكومة على الصمت أمام المنتصر ، بل أظهرت رضا عن مجرى الأمور . أجل ! إن المارشال كان شخصاً محبوباً ، ولكن الاحتجاج على النظام كان يتجمع حول دي جول ، وإن لم يكن هذا إلا رمزاً إذ لم يؤيده أحد من الشخصيات البارزة . ولذلك كان من الصعب الحكم على الاتجاه السياسي لانصاره . ولقد قال بعض الناس إن أنصاره من الشيوعيين ، وقال البعض إنهم من رجال « الاكسيون فرانسيز » . وهذا يفيد أنه وجد أنصاراً بين اليسار واليمين ، على أن أكثر صفوفه تتألف من اليسار . وتجمعت تدريجياً الكراهية للأجنبي وصارت لا تحتمل ، ولكن حركة المقاومة لم توجد ولم تنشأ إلا بعد حوادث نوفمبر سنة ١٩٤٢ عند ما ألقي الألمان القناع وألغوا نظام المنطقتين وامتد نفوذهم على فرنسا .

وعند هذا المكان يجب تحليل النفسية السياسية لرجال المقاومة ، ففيها مفتاح الصعوبات الحالية في فرنسا ، فهم من جميع الأحزاب ولكن أكثرهم من أحزاب اليسار ، والكثيرون بينهم من الشيوعيين ، وهؤلاء الشبان ساروا سيرة المتأمرين ولم يتبعوا النظم البرلمانية ، وهي تجربة جديدة تركت فيهم آثاراً فهم يعتقدون أن حركتهم تمثل رغبة الشعب أكثر من الهيئة المنتخبة ؛ وبذلك تكونت نخبة قد يكون لها تأثير في عالم السياسة .

وعند ما دخل دي جول باريس في ٢٥ أغسطس سنة ١٩٤٤ وجد بلاداً ثمة بالفرح ولكنها من غير نظام سياسي أو إداري ، لا جيش غير ما يحتاج إليه الميدان ولا قوة بوليس غير التي ظلت فيشى تظهر فيها وتبدل حتى لم يبق لها ما تحسنه إلا دور إيقاظ الاضطراب وهو ما قامت به خير قيام عند التحرير . ولم يبق من الادارة غير خدام فيشى الذين لا يعتمد عليهم . على أن جيوش المقاومة تولت مقاليد الأمور ولم يكن الناس يعرفونها ولم تكن منتخبة ؛ لذلك أقامت في الواقع دكتاتورية .

وجدت الحكومة الجديدة صعوبات من أنصارها المتحمسين الذين ألفوا قوات داخلية فنجحت في ضمهم إلى الجيش . وما زاد أمامها الصعوبات انقطاع المواصلات انقطاعاً يكاد يكون تاماً . ثم إن أنصار التعاون كانوا لا يزالون يعملون وإن كانوا أقلية ، وسواد الشعب يرغب في الانتقام منهم انتقاماً سريعاً . فانطلاق الناس بعد أربع سنوات كان أشبه بإزالة جسر تتدفق على أثره المياه وتطغى . فكان على الحكومة أن تستعمل منتهى الحكمة لكي تحول دون الحرب الاهلية . ويظهر أنها كانت مزودة بهذه الحكمة ، وتعرف متى تشد ومتى تلين ومتى تتجنب اتخاذ قرار . ولقد نجح دى جول في تفسير الموقف السياسى فأعلن أنه حكومة مؤقتة للجمهورية الفرنسية ، وبذلك اجتذب كثرة الشعب . وقد ظن أكثر الناس أن عمله تم بذلك ، ولكن رجال المقاومة يرون أنه يجب إتمام « الثورة » . على أن لكلمة الثورة معنى خطيراً في بلد مثل فرنسا ؛ فهم لا يتحمسون لإعادة الجمهورية الثالثة ، وهم متأثرون بروح التغيير الثورى الذى يؤدى إلى الاشتراكية الديمقراطية برياسة الزعيم ، وهذه الفكرة تملأها تقاليد الثورة الفرنسية والشيوعية الروسية . ولا يمكن أن ننكر أن وجود الألمان يترك أثره ، وأن الجو مشبع بالرغبة في الطرق الدكتاتورية والرغبة عن طرق الحرية ، وفرنسا بلد متصل بالقارة ولا بد أن يتأثر بالآراء التى سادت في شرقه .

والآن لا يمكن الحكم على سير الأمور غير أن فرنسا وقفت على أقدامها وقامت بمعجزة من الموت وعادت إليها حريتها وشرفها ، فما موقفها بأزاء الدول الأخرى ؟ يعتبر الفرنسي أنه استرد مركزه الأدبى في العالم ، ويجد حاجة إلى تأكيد هذا المركز مرة بعد مرة في تعجل عصبي ؛ لأن ذكرى السنوات الأربع لا تزال ماثلة لديه . ففرنسا لا تحتفل أن تشعر بأن مركزها السياسى لا يتفق مع مركزها فى الحضارة . وهى بالرغم مما حاق بها من دمار وما خسرت من رجال وما حل بها من ضيق ومتاعب ، تعمل على أن تسترد من قوتها وزعمائها يعملون من أجلها . إن فرنسا لم تقم قط من كبوة بمثل السرعة التى قامت بها هذه المرة . وليس من السهل وصف هذه النهضة العجيبة التى تكاد تكون من المعجزات ؛ فإن الأزمة التى مرت بها فى حرب المائة سنة كانت أقل خطراً لأن حب البلاد عندئذ لم ينفصل عن الولاء للملك . أما فى هذه المرة فقد كانت الحفرة بادية العمق وهول الكارثة جاثماً فلم تك نهضة فرنسا إذن إلا بعثاً .